الكتاب الأول

أعياد الربيع في العراق القديم
وأصل النوروز

المقدمة

من الأمور المبهجة أن يقدم الباحث عناصر مسرة في تاريخنا الحضاري. وليس هناك أجمل من استقصاء صفحات مشرقة تتحدث عن التفاؤل والخير.

الربيع ذلك الفصل البديع، الذي تكتسي الأرض ببساط أخضر موشى بالورود العبقة بحلوله. وصفحات هذا البحث الذي بين يدي القارئ تخص تلك الأيام الخالدة البحث عن الجمال وما يبهج النفس عبر ستة آلاف عام من نتاجنا الحضاري. تلك الومضة التي احتضنها أبناء وطننا العربي ولا سيَّما أقوام العراق القديم والحديث من سومريين وبابليين وآشوريين وأكراد وعرب قبل الإسلام نقلوها إلى أرجاء العالم لروعتها وجميل فلسفتها.

لقد ناقشت السطور المقدمة إلى القارئ كيفية انتقال الاحتفال بأيام الربيع من العراق وسورية ولبنان ومصر إلى شعوب عديدة كاليونانيين والفرس، موضحة بأنه لا علاقة للأقوام المقتبسة لتلك الاحتفالات بوضع أسسها وبهذا تكون هذه السطور قد منحت أبناء وطننا العربي أحقية ابتكار التقاويم وما يخصها ويرتبط بها من أعياد ومناسبات.

إن بحث أيام الربيع في ستة فصول يمنح القارئ على اختلاف ثقافته وأصوله القومية، الحجة والدليل الواضح في ارتباط تلك الأيام الجميلة بماضينا الحضاري. هذه السطور نقدمها إلى من أحب الحضارة، أحب الخير، أحب البناء، وجعل الحقيقة ميزان حكمه على الأمور. وإذا كنا قد أثبتنا بما طرحناه عن مضاء أبناء وطننا في خلق أسس الحضارة العالمية فإنها حقيقة تبعث الثقة بأنفسهم لقيادة الإنسانية من جديد إلى ما تصبوا إليه من سلام ووفاق بعد أن قادها أشرار العالم إلى مزالق التفرقة والعنصرية تتبعها مآسي الحروب والدمار كسماسرة أراذل للجشع والسلاح.

فيا مرحباً بكل ربيع يحل بيننا باعثاً للآمال والابتسامة الدائمة بين البشر.

الباحث

الفصل الأول

كلمة في الحضارة

الإنسان ذلك المخلوق المجهول الذي لا تقل مجهولية وجوده عن مجهولية وجود الكون بأسره. ومنذ بدأ يعي وجوده ككائن له خصائصه، عبر مسيرة عدة ملايين من السنين من التطور العضوي والفكري، أخذ يحاور نفسه عن سرّ وجوده في هذا الكون العجيب المليء بالمفاجآت والألغاز، لا سيَّما وأنه لم يكن ليعلم من أمر قوانينه الفيزيائية والكيميائية شيئاً.

عندما ينعم الباحث نظره في قصة التاريخ يرى أمامه سؤالاً ملخصه:

متى بدأت الحضارة؟ وفي أي حقبة من الزمن ظهر مخلوق بمواصفات معينة نطلق عليه مصطلح "إنسان"؟

يرتبط كل من السؤالين المطروحين ببعضهما، وذلك لأن مقياس الحضارة يتمثل بما تركه الإنسان من مواد ملموسة. وكما نعلم من مقاييس علماء الإنسان يسمى المخلوق إنساناً ما دام متمكناً من السيطرة على بعض المواد ليصنع منها آلة. وهذا يعني أنه امتلك سيطرة العقل الواعي على اليد وتدريب اليد لصناعة الآلة. ومن البديهي أنه قبل تَمَكُّنه من صناعة الآلة كان يستخدم الأحجار والعظام والخشب كما يعثر عليها في الطبيعة، وأنه كان ينتقي الصالح منها ويعني هذا الأمر أن محاولته لصناعة آلة مناسبة جاءت متأخرة. ويرجع بعض المختصين أمر صناعة الإنسان لأبسط الآلات إلى نحو نصف مليون عام أو يزيد. إلا أن هناك آلات صنعها الإنسان ومع ذلك لا يمكن تمييزها عن تلك التي كان يلتقطها من الأرض. ومما تجدر الإشارة إليه أن الآثاريين عثروا على أحد أقدم إنسان بتنجانيقا في كينيا بأفريقية يعود لنحو مليوني عام، وقد وجد المنقبون مع الهياكل العظمية المتحجرة آلات بدائية سمجة. ومن تلك الهياكل ما عثروا عليه في "تشاد" تعود لنحو سبعة ملايين سنة.

مما نستخلصه من دراسة آلات الإنسان القديم، إننا كلما أوغلنا في أغوار الماضي لنتتبع صناعتها نرى أن التطور كان بطيئاً جداً، وقد أحتاج تطوير آلة واحدة إلى مئات الآلاف من السنين، إلا أننا حينما نأتي إلى حقب أحدث نشاهد أن التطور في صناعتها يكون أسرع عموماً من الحقب الأسبق لها. فعلى سبيل المثال احتاجت الفأس اليدوية إلى زهاء الربع مليون عام لتتطور إلى شكل أفضل، كما أنها كانت آلة فريدة في الاستعمال. وفي خلال الفترة التي انتشر فيها إنسان "نياندرتال" في أماكن عديدة من آسيا وأوروبة وإفريقيا منذ نحو (١٢٠.٠٠٠ سنة) حصل تطور ملحوظ في صناعة الآلات وتعددت أشكالها كظهور المقاشط ورؤوس الرماح. وفي شمالي العراق وجدنا في كهف شانيدار وأماكن أخرى أحسن الأمثلة لهياكل هذا الإنسان فضلاً عن آلات جيدة الصنع. وإذا كانت الفترات التي تكلمنا عنها بإيجاز تقع ضمن ما يسمى بالعصر الحجري القديم الأسفل. فإن الفترة التالية للموستيرية، التي عاش فيها إنسان نياندرتال، سميت بالعصر الحجري القديم الأعلى (٤٠.٠٠٠ - ١٢.٠٠٠ سنة).

إن إلقاء بعض الضوء على حضارة العصر الحجري القديم الأعلى هو من الأهمية بمكان، فإذا كانت هناك تقسيمات أوروبية ومميزات خاصة للآلات التي صنعت في أوروبة فإن الحضارة البرادوستية المعاصرة لها، والتي تطورت في شمالي العراق، كالأنصال، والمقاشط، والمثاقب والسكاكين فاقت مثيلتها في فرنسا، علماً بأن تلك الآلات كانت تُصنع من الحجر المسمى بالصوّان وكذلك من حجر الأوبسيديان الزجاجي البركاني.

لا يقتصر أمر حضارة العصر الحجري القديم الأعلى على جودة آلاتها وتعدد أنواعها ودقة حجمها، بل على ما رافقها من تطوير في المعتقدات الدينية وبروز عناصر أساسية لها استمرت إلى يومنا هذا، ولا تقتصر الإشارة إلى المعتقدات كأمر مجرد له مضمون خيالي لا حدود له، بل لكونها عناصر أثّرت فيما نحن بصدده لبحث مفاهيم الأعياد ومسوّغات قيامها.

لقد لاحظ المختصّون وجود رسوم عديدة في كهوف ومأوي صخرية في شمالي أفريقية وجنوبي أوروبة تعود إلى العصر القديم الأعلى ظهرت منذ مطلع هذا العصر في الفترة المسماة بالأورغنيشية، واختفت بالسلوترية، التي تلتها ثم عادت فانتعشت بشكل

يجلب الانتباه خلال الفترة الأخيرة، إي المجدلينية (١٨٠٠٠ - ١٢.٠٠٠ سنة) وقد دفعت الجودة البالغة لبعض الرسوم القديمة إلى أن يعدها علماء الإنسان والآثار أعمالاً حديثة مزورة أول الأمر.

لاحظ المختصون وجود سمات معينة في رسوم الكهوف، منها إنها لا ترسم في بداية ومداخل الكهوف بل في الأماكن البعيدة والخطرة، بل وحتى في السقوف أيضاً، وهو ما حدا بافتراض استعمال المشاعل والسلالم في إنجازها. أما الموضوعات التي ركّز عليها الفنانون القدامى فتمثلت في الحيوانات التي استفاد منها اقتصادياً كالثيران والغزلان والماموث (وهو حيوان منقرض شبيه بالفيل)، فضلاً عن الماعز. أما الحيوانات الأخرى والنباتات فلا وجود لها تقريباً. وإذا كان الفنانون قد مثّلوا الحيوانات المرسومة بشكل جيد، باستخدام أساليب عديدة فإن رسوم البشر كانت قليلة وتخطيطية، كما عثر المختصون على بعضها وقد رسمت وعلى وجه الإنسان قناع. وكانت الرسوم تنجز بالحزوز أو بالألوان أو بهما معاً.

وإذا ما اجتزنا الحديث على الرسوم لننتقل منها إلى التماثيل الصغيرة التي سادت في ذلك العصر، نرى أن أمثلتها محدودة بالنسبة إلى الرسوم، ويبدو أن السبب في ذلك راجع إلى أنها قابلة للنقل من مكان لأخر وضياعها فضلاً عن احتمال كسرها وتلفها. ولكن هل مثلت موضوعات التماثيل عينها موضوعات الرسوم؟ الجواب: كلا.. فمعظم الدُّمى مثَّل امرأة بشكل كامل أو برأسها فقط. أما التماثيل الكاملة فيبرز فيها الثديان والورك، في حين كان الوجه يُمَثَّل دون تفاصيل. أما الرجال فتماثيلهم نادرة. وكانت المواد التي تُصنع منها الدمى تتمثل بالطين والعظم والحجر والعاج أيضاً.

ما هي الأسباب وراء رسوم وتماثيل الكهوف؟

تعرَّفنا من السطور السابقة على بعض خصائص الرسوم والتماثيل ولم نتطرق إلى الأسباب الكامنة وراء تمثيلها.

عندما نتذكر بأن الرسوم المنجزة كانت تمثل الحيوانات التي استفاد منها الإنسان اقتصادياً، وإن النبات لم يكن يمثل، وأنها كانت تنجز في أماكن نائية عن مدخل الكهف وفي السقوف، نعلم بأن الغاية من عملها لم تكن فنية صرفه. ويمكن

أن نضيف ملاحظات أخرى عليها هو العثور على بعض الحفر على الرسوم بتأثير رؤوس رماح وجهت إليها، ويبدو أن ذلك ربما تم في رقصات سحرية، أضف إلى ذلك أن بعض السهام شوهدت مصوبة إلى أجساد بعض الحيوانات والدم ينزف منها كجزء من مشهد الصيد.

إذاً نستخلص مما سبق أن هناك غاية عقائدية واقتصادية من وراء تلك الرسوم والأعمال الفنية المشكلة. وعندما نوغل في تقصي أمر تلك العقائد نراها تتلخص في المبدأ الذي يطلق عليه العلماء اسم "السحر الانجذابي" أو "التعاطفي" الذي كان الأساس في معظم المعتقدات والطقوس التالية.

على أي حال، لم تكن الكتابة قد عرفت في عهود الكهوف، لذا فإننا حينما ننوي تقصّي أسرار مجتمع قديم فإننا نلجأ إلى طريقة أخرى تقودنا إلى مقارنات مفيدة، فالمجتمعات المتأخرة حالياً ميدان خصب لهذا النوع من المقارنات.

شكل (١)

تمثال صغير بوضع أمامي وجانبي، لآلهة أم من الفترة الأورغنيشية قبل نجو (٣٠.٠٠٠ سنة). لاحظ التركيز على الصدر والبطن والورك بما يمثل الاهتمام بعناصر الإخصاب.

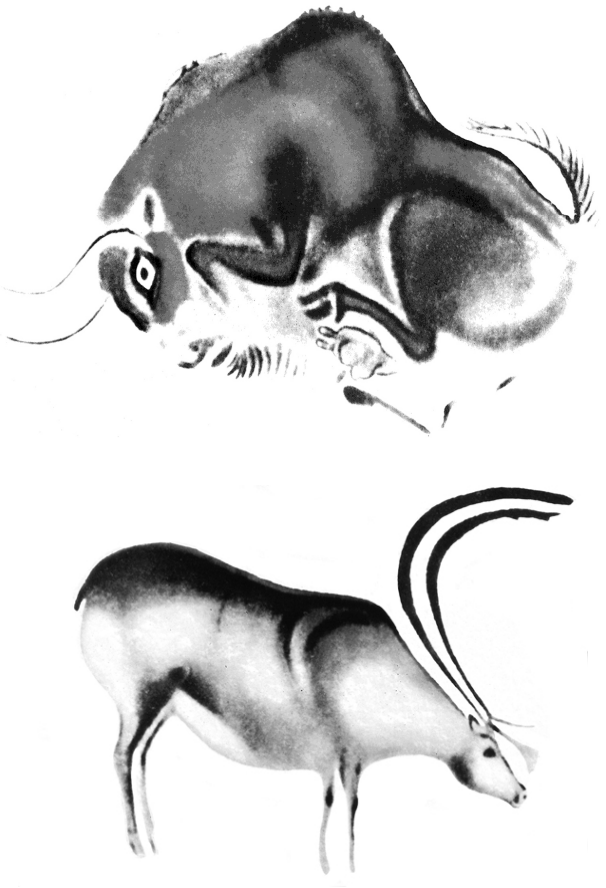

شكل (٢)

رسمان من رسوم الكهوف: الأعلى باللون والحزوز والأسفل باللون فقط. من العصر الحجري القديم الأعلى..

لنأتِ إلى مثال يوضح لنا وجهة نظر بعض المجتمعات البدائية في إفريقية أو الهنود الحمر والأسترالية، إذ لديها تصورات تخص الرسم. ومن تلك التجارب ما أشار إليه أحد الباحثين من أنه كان يقوم برسم مشهد في قرية وبضمنه الأبقار التي كانت أمامه، وما كان من أحد الهنود الحمر أن يعترض عليه قائلاً: "إني أعلم أن هذا الرجل قد وضع كثيراً من بقرنا الوحشي في كتابه ومنذ ذلك الوقت ذهبت عنّا أبقارنا[1]"!!. وهذا يشير إلى أن الإنسان البدائي لم يكن يُمَيّز بين صورة الشيء والشيء نفسه. كما أن هناك

قبائل لا توافق أن يطأ شخص ظل شخص أخر على اعتباره أنه حامل لخصائصه. وبالتالي فإن الحالة الأخيرة تدلنا على أن الرسم ما هو إلا ظل الشيء وما يُعمل عليه من تأثير سحري سيجعل التأثير نفسه يمتد إلى الشيء نفسه وبالتحديد إلى الحيوان الذي ينوي اصطياده، كما في أمثلة الكهوف. ومن الأمور التي لاحظها بعض الآثاريين أن أشخاصاً في الماضي تناولوا طعام بعض الحيوانات وغرسوا رؤوس رماح في عظامها، وذلك لأن التأثير على جزء من الحيوان يعني إمكان صيده في الحقل[٢]. ومن الواضح أن الإنسان كان يُدرك بأن حيواناً واحداً بإمكانه أن يولّد أجيالاً لا نهاية لها من الحيوان، من ثم فإن التأثير في عظام أحدها يعني إمكان التأثير على أخرى. أي أن التأثير على الحيوان كان يتم بطريقتي الرسم أو على جزء منه، ضمن مبدأ السحر الانجذابي ضمن منطلق واحد. إلا أن التأثير على الأشكال والرسوم كان الأكثر.

يُسمِّي الأخصائيون الحقب الطويلة التي سبقت بناء القرى فترات جمع الطعام، في حين دخل الاقتصاد مرحلة أخرى عند بناء القرى في الطور المسمى بإنتاج الطعام سواء الحيواني منه أو النباتي. وما أشرنا إليه يعني أن الصيد كان عماد إنسان الماضي. ومن الواضح أن الرجال كانوا يقومون بهذا العمل بشكل خاص، وربما كان الأمر يحتاج إلى فترات طويلة، ومن ثم فإن الأطفال الناشئين كانوا يرون النساء دون الرجال عموماً، وإن المرأة كانت تقوم بالأعمال الأخرى مما يجعلها المثل الأعلى بنظر الطفل، الأمر الذي دفع المختصين إلى أن يسموا هذه الفترة بفترة سيطرة الأم. لذا يرى البعض أن وجود التماثيل الأنثوية يبرر هذه التسمية.

لقد أشرنا في السابق إلى أن الغاية من رسوم الكهوف هي ليتمكن الإنسان من صيد الحيوان في الحقل. أما غايته من عمل التماثيل فعلى العكس من ذلك إذ كان يعتمد على مبدأ الاعتزاز بالتمثال وتقديسه والعناية به لا التأثير السلبي، والتخريبي عليه كما هو الحال في الرسوم. ومن الجلي أن الإنسان لاحظ بأن الإناث هن العنصر الأساسي في إدامة الحياة وحاملات لسمات استمرارها، لذلك فإن تقديس ما يمثل المرأة يعني استمرار الحياة وإغداق الخير على المجتمع. وهذا ما يفسر الاهتمام والتأكيد على عمل الثديين ضخماً وكذا الورك والبطن لأن هذه تمثل الأجزاء المُحفِّزة على الاستمرار في الحياة حسبما افترضوا.

نقلة مهمة إلى العصر الحجري الحديث

حين استقر الإنسان في قرى أقامها لأول مرة في العالم في شمالي العراق، استمر في عادة صنع الدمى الأنثوية من الطين بعين مواصفات دمى الكهوف.

بدأ العصر الحجري الحديث في العراق وسورية قبل نحو عشرة آلاف سنة، وقد أدت تربية نماذج مختارة من الحيوان وانتخاب أصناف معينة من النباتات لزراعتها إلى استقرار الإنسان اجتماعياً واقتصادياً بشكل تدريجي. وقد خلق هذا النمط من العيش المجال أمام الإنسان للتأمل لإيجاد مخارج جديدة في فهمه للكون ولو بمواصفات بدائية ولغة بسيطة ساذجة. فمن الواضح أن انتقال الإنسان إلى عالم الزراعة، ثم التركيز عليها في فترات تالية، أدى إلى إيجاد مفاهيم اعتقاديه جديدة لا تَخُص عالم الحيوان، عماد حياته في الماضي، بل الزراعة بشكل خاص. ونحن نعلم في عالم المعتقدات أن التغيير والتحوير فيها ليس أمراً بسيطاً لأن المعتقد كثيراً ما يسير في دم الإنسان، وإن كان بعيداً عن القيم أحياناً، إلا أنه مهم ما دام يلبي حاجات الإنسان ويجعله يستمر في الثقة بنفسه أو أطماعه. لذلك كان من الممكن أن تتحول الدمى الأنثوية للنساء من مفهومها البشري لتتجسد الأرض فيها، ما دامت الأرض قد أمست عنصر إنتاج بما يبعث على الاستمرار في الحياة، وبالتالي أمست الأرض أمّه التي تؤويه. وليس غريباً أن نرى بأن العلامة الخاصة بالأم في الكتابة المصرية القديمة، هي عينها التي استخدمت للتعبير عن المدينة[٣].

بممارسة الإنسان للزراعة كانت الحاجة مُلِحَّة إلى تقويم يضبط فيه المراحل التي يَمُرّ بها الزرع ولا سيَّما النباتات الحولية والموسمية. لقد كان بديهياً اختياره كدليل في تقويمه، إلا أن ضبط دورة سنوية قوامها (٣٦٥) يوماً يضاف لها ربع يوم كان من الأمور الصعبة، لذلك كانت الأهِلَّة ما استعان بها في تدبير أمور حياته أول الأمر، لأنه من السهل حساب ظهور أثني عشر هلالاً متتابعاً في أدواره المختلفة حتى صيرورته بدراً ثم انمحاقه ليظهر ثانية. وعلى أي حال، إننا نرى أثر التقويم القمري واضحاً في السنة السومرية - البابلية، فعلى الرغم من اعتماده الشمس إلا أنه يبدأ بإطلالة أول هلال في الشهر الذي كان يحدث الاعتدال فيه كبداية للربيع عبر المسيرة الحضارية لتراثنا العريق رأى سكان العراق القديم وسورية أن تقديم الخضوع والطاعة للآلهة الأرض، التي جَسَّدوها بشكل

امرأة، لا يكفي لإدامة الخير وإنعاش الزراعة وبالتالي الحيوان، فقد رأى المواطن في الماضي أن الشمس في كل يوم وعام لا تتغير، وكذا الأرض. لذا كان يتساءل عن السبب في حصول التغير في الإنتاج كل عام سواء ما يلاحظه من تغيير في كمية المطر ومناسيب مياه الأنهار أو انتشار الأوبئة. ومن الواضح أن التشكيك في قدرة الآلهة الأم (الأرض) كان مبعثاً لتوجه المواطنين القدامى إلى عبادة قوى أخرى غير الأرض، فيبدو أنهم توجهوا إلى الشمس والقمر، وحينما وجدوا ذلك لا يكفي توجهوا لعبادة كواكب سيارة أخرى كالمريخ والزهرة ثم عطارد والمشتري وزحل. ومن الواضح أن انتقال الآلهة من الأرض إلى السماء خطير ومهم، لأن منطلق الأديان التالية كان يتجه نحو عبادة آلهة خفية تسكن السماء مع الكواكب. وكأمر طبيعي إن الذين قادوا حركة التغيير الديني لاقوا صعوبات في تغييرهم هذا. وما نراه أنه على الرغم من إيجاد تسميات ومواصفات للكواكب السيارة كآلهة فإنها جميعاً كانت "مذكراً" باستثناء الأرض والزهرة. ومن الواضح أن عبادة إله أو كوكب سيار مُعَيَّن كانت منزلته مختلفة من مدينة إلى أخرى، والسبب في ذلك أن اتخاذ مدينة ليكون كوكبها الدليل كان يعتمد على حسابات مُعَقَّدة في عالم العقيدة التي كانت تعتمد بشكل مُرَكَّز أكثر كلما طال الزمن على حسابات الفلك المرتبطة بالتنجيم. ولما كانت طباع الكواكب والأبراج مختلفة فإن علاقات المدن والأقطار مع بعضها مختلفة هي الأخرى، وإن القرانات الكوكبية سواء كانت سُعداً أو نَحساً تقرر الحوادث المستقبلية. ومن الواضح أن تقديم الصلوات والقرابين وأداء طقوس معينة كان فيها ما يمكن لأن يدرأ الأخطار المحدقة ببلد أو مدينة معينة ولا سيَّما حينما يكون هناك كسوف أو خسوف أو علاقات كوكبية غير مرغوب بها.

ومما مضى نستنتج أن الأعياد والمناسبات كانت تقوم بناءً على حسابات دقيقة وكانت الغاية منها إحداث تغييرات في إحداث المقبل من الأيام أو تجنب أخطار معينة لإحلال الفال الحسن. ومن الواضح أن إحداث أثر إيجابي في عطاء الطبيعة كان الغاية الأساس لعديد من الاحتفالات والأعياد ولا سيَّما الاحتفال بأيام الربيع ما دامت المنطلق والبداية لسنة جديدة التي ينبغي أن يكون فيها كل شيء جيد لعكس استمرارية الخير الدائم. وفي إطلالة الربيع ما يجلب الانتباه حيث اعتدال الجو وازهار الطبيعة، وموسم ولادة كثير من الحيوان.

شكل (٣)

تماثيل صغيرة من الرخام وجدت في تل الصوان قرب سامراء وهي ذات دلالات عقائدية وتمثل نساء. (تعود لنحو ٧٠٠٠ سنة مضت)

شكل (٤)

تمثال للآلهة الأم وهي ترضع صغيرها وعلى الكتفين يظهر ما يمثل البذور، وجدت بمدينة أريدو في جنوب العراق وتعود لنحو (١٠٠٠ سنة مضت)

الهوامش

١. الباشا، حسن، تاريخ الفن في عصر الإنسان الأول، مكتبة النهضة، مصر ١٩٥٤، ص ٥١.

٢. وقد لوحظ مثل هذا التقليد في آثار الاتحاد السوفيتي. راجع:
Mongait, A. L.; Archaeolagy in USSR, Pelican Books, p.97.

٣. مفورد، لويس، المدينة على مرّ العصور، (مترجم بإشراف د. إبراهيم نصحي)، القاهرة، ١٩٦٤، ج/١ ص/٢١.